# تجليات التجربة الذوقية وخصائصها عند المتصوفة
# دراسة في المنهج والتجربة

**الدكتور خليفي الشيخ**
**جامعة تلمسان**

التجربة الذّوقية فريضة لازمة من فرائض الطريق الصوفي ، يتلاقى عندها المنهج ومبادئه ، وهي لبّ لباب الحقيقة التي ينشدها الأولياء العارفون ، فما من متصوف ظهر في تاريخ المسلمين إلا وتراه يخوض عباب التجربة الصوفية ويعيش منازل الحال لتتميز تجربته بالعقيدة التي يعتقدها ويدين لها بالولاء .

والصوفية يتفقون على أنّ غايات الطريق و نهاياته لا تصحّ إلاّ بصحة البداية ، وأكّدوا على أنّ أكثر موانع الطريق وعوائقه إنّما تكون من فساد الابتداء و من هنا اهتم أقطاب التصوف الذين تصدروا لتربية المريدين بتصحيح بدايات السالكين ، و توضيح الأسس و المبادئ التي يقوم عليها الطريق لأنّ البداية كلما كانت أحكم ؛ كانت النهاية أتمّ ، و من نهايات الكلام عن طبيعة الطريق الصوفي ممارسة التجربة الصوفية الذوقية .

وعليه فوجود الصوفي في عالم الذوق هذا ، إنّما هو النهاية الطبيعية التي كان لابد أن يصل إليها كل مؤمن حقيقي يزاوج بين مطالب النظر و مطالب المجاهدة النفسية . و المعلوم أيضا أنّ علماء الصوفية لا يكتفون بأن يوضحوا للسالكين كيفية الممارسة الصوفية بمجرد الكلام النظري ، و لكنّهم بالإضافة إلى ذلك ، يأخذون بيد مريديهم و يسيرون بهم في مدارج الترقي بكيفية عملية ، و يرافقونهم في جميع مراحل سيرهم إلى الله تعالى حتى النّهاية ، و هكذا يرسمون لـهم المنهج العملي الذي يمكّنهم به أن يتحققوا بأركان الدين الثلاثة ؛ الإيمان والإسلام والإحسان .

إن الممارسة الذّوقية الصحيحة نتيجة من نتائج تحصيل عقائد الإيمان بالنظر ، و لا قيمة للتصوف عند السالك الحقيقي إذا لم يكن قائما على الذّوق . إنّ الصوفي إذا كتب بحوثا في التصوف فهو يكتب تحت تأثير التجارب الشخصية التي عاناها و الرياضات ، و المجاهدات التي بذلها ، و الأذّواق و المواجد التي نالها ، لأنّ التصوف عنده ليس علما كسائر العلوم ، التي يمكن أن يشتغل بها المرء ، دون أن يكون لحياته ، أو لمسلكه ، أو لخلقه دخل فيها . لأنّ التصوف علم ، و عمل ، ومعرفة ، و سلوك ، و بدون العمل لا يتحقق العلم ، و بدون السلوك لا

تتحقق المعرفة ، و لهذا فالتصوف يعتمد على الذّوق أكثر مما يعتمد على المنطق .

كما إنهّا عند بعضهم الآخر دعوة إلى الاعتدال بين العقل والقلب و العمل الاجتماعي و تعاطف مع أهل القلوب ، واستمرار التواصل مع النّاس إلاّ في حالة إدراكه للولاية ، لقد أثبت المذهب الصوفي ، أنّ المعرفة الحقة في نهاية الأمر، لا تستوعبها بكاملها ، علوم الظاهر ، و لا تدرك على أسسها الصحيحة إلا بإضافة العلوم الباطنية . و دعوة إلى العمل على رفع هذا التقابل العدائي الذي استقر بين هذه العلوم و الذي رسخ في نفوس كثير من النّاس .

وإعلاء للذّوق و الممارسة الذوقية ، و تقديرا لمنزلتها الشريفة ، فقد وضع لـها الكثير من المتصوفة شروطا لممارستها و المواظبة عليها ،و مجموعة من المراحل والخطوات المتدرجة على السالك احترامها والسير فيها حتى تكون مثمرة .

الدراسة ستتناول ثلاث مباحث رئيسية هي :

المبـحث الأول : مفهوم الذوق و علامة صحته .
المبـحث الثاني : شروط ومراحل التجربة الذوقية عند الصوفي والفوائد المتربة عليها.
المبحث الثالث : خصائص التـجربة الذوقية الصوفية

## المبـحث الأول : مفهوم الذّوق و علامة صحته

إنّ الممارسة الذّوقية نتيجة من نتائج تحصيل عقائد الإيمان بالنظر ، و لا قيمة للتصوف إذا لم يكن قائما على الذّوق . فما هي حقيقته ؟ و ما هي علامات صحته ؟

إنّ الصوفي الحقيقي إذا كتب بحوثا في التصوف فإنه يكتب تحت تأثير التجارب الشخصية التي عاناها ، و الرياضات والمجاهدات التي بذلها ، و الأذّواق و المواجيد التي نالها ، لأنّ التصوف عند المتصوفة ليس علما كسائر العلوم ، التي يمكن أن يشتغل بها المرء ، دون أن يكون لحياته ، أو لمسلكه ، أو لخلقه دخل فيها ، ذلك أنّ التصوف علم ، و عمل ، و معرفة، وسلوك ، و بدون العمل لا يتحقق العلم ، و بدون السلوك لا تتحقق المعرفة ، و لهذا فالتصوف يعتمد على الذّوق أكثر مما يعتمد على المنطق1 .

### أولا : مفهوم الذّوق

جاء في التعريفات « للجرجاني» ، في تعريف الذّوق على أنّه « قوة منبثة في العصب المفروش على جرم اللسان تدرك بها

الطعوم بمخالطة الرطوبة اللعابية في الضم بالمطعوم و وصولها إلى العصب [ و هذا بالمعنى الحسي ]. و الذّوق في معرفة الله سبحانه تعالى : عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه ، يفرقون به بين الحق و الباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره «2.

والذّوق عند المتصوفة كالشرّب، لكن الشرّب لا يستعمل إلاّ في الراحات، والذّوق يلائم الراحات والمتاعب . وأول التجلّيات الذّوق ، ثم الشرّب ، فإذا بلغ الغاية يسمى ريا . وفي الأمثال يقولون : ذقت البلاء ، وذقت الراحة ، فهذا جائز أنّ تذوق الاثنين و في القرآن الكريم عن الذّوق والشرّب : { كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }3، فالشرّب للهناءة ؛ وكذلك الذّوق : { ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ }4، فالذّوق هنا للبلاء ، وفي سورة الروم :{ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا }5، وفي سورة هود :{ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ }6، و الذّوق أيضا للهناء

غير أنّ وسيلة الذّوق قد تستعمل خطأ في التصوف ، لأنّ ما تراه بعقلك خطأ قد لا يكون كذلك بذوقك ، والعقل في

عرف البعض لا يعتمد عليه، وهو طاغوت أخرق ، وقد يسمى الذّوق « بالوحي» فيقال: علمه بالذّوق ، أي بالوحي، و قد يوصف الذّوق بأنّه «قدسي»، يعني « إلهي» ، أي من الله . و من الاصطلاحات الصوفية المشهورة « من ذاق عرف «، يعني من يجعل الذّوق وسيلة المعرفة كان من العارفين7.

والعلوم الذّوقية، هي علوم الصوفية عن المعارف والأسرار المتعلقة بالأحوال كالشرّب، والرّي، والمشاهدة ، والمكاشفة ، والمحاضرة ، وهي علوم ليس لها منطق، مدارها القلب ، وتحصيلها بالرياضة والمجاهدة والمكابدة والإخلاص لله تعالى8.و أهل الذّوق هم: « من يكون حكم تجلياته نازلا من مقام روحه و قلبه إلى مقام نفسه وقواه ،كأنّ يجد ذلك حسا ، ويدركه ذوقا بل يلوح ذلك من وجوههم «9.

و ذكر أنّ القاضي « عياض « عرّف الذّوق : على أنّه « يقصد به المعرفة ، فالذوق هو معرفة الله سبحانه وتعالى واستحلاء الإيمان ، و يكون بالرضا بالله الذي هو دليل على هذه المعرفة «10.و يضيف الإمام « الأبّي « على التعريف السابق و « في كونه دليلا – أي المعرفة – عليها ، لأنّه مسبب

عنها و وجود المسبّب يدل على وجود المسبّب ، ثم الرضا بالشيء يكون بمعنى القناعة به و بمعنى الإيثار لـه ، و من لم يقنع بالله سبحانه فليس من الإسلام في شيء ، ومعرفة الله سبحانه و استحلاء الإيمان به من صفة الخواص فلا يدلّ عليها إلاّ ما هو من صفتهم ، فإنّ قلت معرفة الله سبحانه و استحلاء الإيمان به هما الغاية فلو أريد في الحديث الشريف : « ذاق طعم الإيمان .. «11 لم يعبر عنها بالذوق إذ لا يعبر عن غاية الشيء بمبدئه لأن الذوق مبدأ الفعل12 .

فالذوق هو معرفة بالله سبحانه وتعالى ، واستحلاء بالإيمان به ، ولا يكون إلا عن رضى بالله تعالى ، الذي هو دليل هذه المعرفة . ولا يتحقق هذا الذّوق ولا يكون إلّا بالقناعة التامة به ، وبوجوده ، وكمال وحدانيته في ذاته وصفاته ، وإيثار ما يحبه و يرضاه ، واجتناب ما يبغضه ويسخطه .

**ثانيا : علامة صحة الذوق** . إنّ بداية العارفين عند المتصوفة الربانيين تكون بتنقية الباطن من العقائد الفاسدة والذهن من الأفكار الباطلة و التصورات المنحرفة ، وأما حالهم المتوسطة فتكون بالتنزه في جلال مولانا سبحانه وتعالى وكمالاته ، والترقي فيها إلى أن يشرفوا على العجز من كثرتها و عدم

النهاية فيها ، و أمّا نهايتهم فهي العجز عن الإحاطة و الفناء في عظيم كبريائه جل و عز13.

كما أنّ القلب عند هؤلاء المتصوفة لا يتهيأ و لا يكون مستعدا لتحليته بزينة أحضار المألات التي يتصف بها مولانا سبحانه و تعالى ما لم يتطهر العقل و الذهن من كل عقيدة فاسدة في حق ذات الله سبحانه و تعالى . ذلك أنّ العبد الذاكر مثلا إذا أثنى على الله تعالى بعد هذا صحّ منه واستقام ، و لا يكون إلا بالحمد الذي هو ثناء حسن على كل كمال يليق به جلّ و علا كوجوب القدم لـه تعالى و البقاء و المخالفة للحوادث و التنزه عن مماثلتها ، و عن الاتصاف بلازم من لوازمها إلى غير ذلك مما يجب اتصافه تعالى به من الأوصاف العلية14 .

إنّ العقل عند هؤلاء هو البداية للوصول إلى المعرفة الذوقية يليه في الرتبة القلب ، ولهذا فسر بعضهم « رؤية الرب بعين القلب « على أنّها المعرفة بوجود الله تعالى ، وما يَجِبُ لـه ، وما يَسْتَحِيلُ ، و لا تكون إلا ببصيرة القلب التي هي عينه، وهو الجُزْءُ الذي يَقُومُ به العِلمُ 15.بمعنى أنّ رؤية الله بالقلب ، لا تتحقق إلا لمن عرف ربّه بالبرهان القاطع و الدليل

الواضح ، وتميّز لـه ربّه عن كل ما سواه فنزهه عن الشريك والشبيه والمثيل ، وذلك تنبيها على أنّ حصول الإيمان لا يكون إلا عند حصول المعرفة ، لأنّ الإيمان هو حديث النفس التابع للمعرفة لا نفس المعرفة .

المسألة الثانية المتعلقة بالعقل في رحاب المعرفة الذوقية عند المتصوفة ، هي الخوف عليه من العجب بنفسه من هذه المعرفة ، و هي صفة لا ينفك عنها العقل ، وسبب هذا العجب هو ابتهاج القلب بما تحلى به من يواقيت العلوم بهذه الكمالات، واهتزازه طربا مما غمره من محاسن تلك الصفات التي يستحيل أن يتصف بها غير مولانا جل و عز من جميع الكائنات ، و تنزه العقل في محاسن هذه الروضة العديمة المثال ، و شرب من ماء سلسبيلها المطرد تحت باسقات الأنظار السديدة التي منّ بها مولانا العلي ذو الجلال ، و خيف عليه من شدة الفرح بذلك أن يسكن ، و تستولي عليه القوة الوهمية فيعربد ، و يسيء الأدب بلفظه في حضرة جلال مولانا جل و عز16.

وسبب ذلك أنّ العقل « يعتقد أنّه قد أحاط بكمالات مولانا جل و عز فناداه صاحبه عند ذلك : « الزم كنك ، واعرف قدرك ، فالله أكبر « أي أجل قدرا ، وأرفع جلالا أن

تحيط بكمالاته نهاية العقول : « اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك «17 ، فرجع العقل عند هذا بعد سكره الذي كاد أن يخامر قلبه إلى صحوة و نكص على عقبه سالكا ما هو الأليق به من سبيل الإقرار بالعجز عن الإحاطة بجلال مولانا جل و عز و أطرق رأسه حياء مما كاد أن يخامره أولا فقال : « الله أكبر «18.

إنّ غفلة القلب عند المتصوفة تمنع المريد من الدخول في حضرة الله ، أي : دائرة ولايته، و التمتع بجمال ذاته و صفاته ، و لا مطمع للمريد في هذه الحضرة المقدسة إلا بالتطهر من هذه الجفاية والإعراض عن المعاصي و الشهوات19.و قد أشار الشيخ «ابن عطاء الله» إلى هذا المعنى في قوله : « كيف يشرق قلب ، صور الكائنات منطبقة في مرآته ؟! أم كيف يرحل إلى الله ، و هو مكبل بشهواته ؟! أم كيف يطمع أن يدخل في حضرة الله ، و هو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟!» 20.

إنّ المشكلة هي غفلة القلب عن الله ، و العلاج يكمن في أن يسعى الإنسان سعيه الجاد للتخلص منها ، فإذا تخلص من الغفلة اتجه منه القلب إلى مولاه ، و سار ثابتا مستقيما في طريق

الطاعات و صحا شعوره و ضميره إلى مراقبة الله عز وجل وذكره ، و لا يتحقق هذا إلا إذا أقبل العقل يستأذن القلب ليغرس فيه هذه المعاني المتقدمة ، و هذه هي طهارة العارفين وأول مقاماتهم.و بالأساس إنّ المعرفة الذوقية لا تكون صحيحة إلا بحسب المعرفة الرسمية التي أنتجتها البراهين العقلية ، إذ علامة صحة الذوق عند الإمام أن يجري على وفق ما شهد به العلم الرسمي 21.

فالسلامة في المعرفة الذوقية تكون بالإتباع و الهلاك كل الهلاك بعدم مراعاة هذه المسألة، وهو: « أنّ بعض السالكين في طريق المعرفة الذوقية إذا لاح لهم شيء من روائح هذه المعرفة اغتروا بذلك ، و تركوا الإقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام و تبدعوا أمورا لأنفسهم فهلكوا بسبب ذلك «22.

## المبحث الثاني : شروط الممارسة الذوقية ومراحلها

إعلاء للذّوق والممارسة الذوقية ، وتقديرا لمنزلتها الشريفة ، فقد وضع لـها المتصوفة شروطا لممارستها والمواظبة عليها، ومجموعة من المراحل والخطوات المتدرجة على السالك احترامها والسير فيها حتى تكون مثمرة . وفيما يلي بيان ذلك :

**أولا : شروط الممارسة الذوقية** .يشترط قبل ممارسة التجربة الذّوقية والذكر الالتزام بالشروط الأساسية التالية ، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي :

 الشرط الأول : اعتزال النّاس ، و العزلة انفراد القلب بالله و تفرغه له23 . فإلى جانب العلم الضروري الذي يشكل القاعدة العقلية للعلم الباطني ، و إلي جانب حضور الاستعداد النفسي و الإرادة لخضوع التجربة الذّوقية ، لا بد من تجنب معاشرة الناس ، حيث يبقى المريد رهين بيته ، أو المسجد ، أو مكان خال من الضجيج، ويهيئ لنفسه أسلم الظروف التي تمكنه من ملازمة الذكر تقربا إلى الله سبحانه وتعالى ، وكسبا لرضاه ومحبته ، والوصول إلى المعرفة الكاملة بملكوت الله تعالى . والغاية من اعتزال الناس ، التحصّن من المفاسد وأسبابها ، وإيجاد جو ومناخ ملائم للدخول في عالم الذّوق24.

والشكل الوحيد للعزلة التي يمكن ، بل و يجب أن يعتبر نافعا و مرغوبا فيه بالنسبة إلى كل النّاس ، لأنّه يخلق القيم الإيجابية الأساسية ، هو الابتعاد الجزئي عن الضجيج الدنيوي بقدر ما يلزم للاستجماع و التأمل الخصب ، ولا أحد يماري في

فضل هذا النّوع من الانطواء ، فهو وسيلة الوحيدة القادرة على إضاءة أفكارنا ، وإعلاء مشاعرنا ، وشحذ عزائمنا ، ودعم صلاتنا بالقيمة المطلقة ، بيد أنّه ليس بلازم أن يتم هذا

الاعتزال خارج المدينة ، وعلى حساب واجباتنا الأسرية والاجتماعية فبدلا من أن يعتبر انقطاعا ، ينبغي أن يكون بالأحرى اهتماما باسترداد أنفسنا خلال ساعات فراغنا وبخاصة أثناء الليل ، وهو ما يقصد إليه القرآن ، في سورة المزمل {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً }25 «26.

 الشرط الثاني : الطهارة ، و هي عامة ، تشمل طهارة البدن ، والثوب، والمكان ،كمن يتأهب للأداء الصلاة ويستعد لها . و« ينبغي أن يكون الذّاكر على أكمل الصفات ، فإن كان جالسا في موضع ..، جلس متذللا متخشعا بسكينة ووقار مطرقا رأسه ، و لو ذكر على غير هذه الأحوال جاز ولا كراهة في حقه ، لكن إن كان بغير عذر كان تاركا للأفضل والدليل على عدم الكراهة قوله تعالى :{ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } 27 «.28

– الـشرط الثالث : تحري الخلوة 29، وهي « أخصّ من العزلة لأنّها بوجهها و صورتها نوع من الاعتكاف ، لكن لا في المسجد و ربما كانت فيه ، و أكثرها عند القوم لا حد لـه ، لكنّ السنّة تشير للأربعين لمواعدة موسى عليه السلام ، والقصد في الحقيقة ثلاثون ، إذ هي أصل المواعدة ، وجاور صلى الله عليه وسلم بحراء شهر ، كما في مسلم30. وكذا اعتزل نساءه ، وشهر الصوم واحد ، و زيادة القصد و نقصانه كالمريد في سلوكه ، وأقلها عشرا لاعتكافه عليه السلام العشر ، و هي للكامل زيادة في حاله و لغيره ترقية ، ولا بد من أصل يرجع إليه، والقصد بها تطهير القلب من أدناس الملابسة ، و إفراد القلب لذكر واحد ، وحقيقة واحدة ، ولكنّها بلا شيخ مخطرة ، وله فتوح عظيمة ، وقد لا تصلح لأقوام فليعتبر كل أحد بها حاله »31.فالخلوة بناء على ما تقدم انقطاع عن البشر لفترة محدودة ، و ترك للأعمال الدنيوية لمدة يسيرة ، لغاية نبيلة يخلو فيها المريد مع ربه سبحانه و تعالى

– الشرط الرابع : اختيار الزمان .ويكون بأن يختار الذاكر الأوقات والأزمنة المشرفة طمعا في موافقة ساعات الاستجابة ،

وأفضل الأوقات بعد الفجر إلى طلوع الشمس، وبعد العصر إلى غروبها، أو بين صلاة المغرب والعشاء، والسحر32.

الشرط الخامس : استقبال القبلة . وهو شرط أخير الذي يشترط على من يريد ممارسة الذكر أن يقوم به يحترمه . أما آدابها فخمسة : وهي الأول خلو الباطن من الطعام ، والثاني جلوس الذاكر على هيئة تقتضي الخشوع ، والانكسار ، والثالث تغميض العينين عند التوجه للذكر ، و الرابع اتخاذ سبحة ليحصي بها عدد التزامه لأنّ الحصر بالأصابع مشغل للفكر سيّما أهل البداية ، والخامس ألّا يقطع ورده بشيء من كلام أو غيره فإنّه قادم على الله تعالى يناجيه و يخاطبه فلا يقطع إلا لعارض33واجب أو كالواجب34.

## ثانيا : مراحل الممارسة الذّوقية

للممارسة الذّوقية عند الكثير من المتصوفة ثلاثة مراحل و خطوات متدرجة ، على السّالك احترامها و السّير فيها وهي على النحو الآتي :

**أ / الدخول في التخلية** : ويقصد بالتخلية ، تصفية القلب و تخليصه من كل الخواطر الوهمية ، وكل الأسباب التي من

شأنها ، أن تستعبده أو تصرفه عن الامتثال للواحد الأحد ، كالجاه و المال والنساء والذرية و المدح و الذم35.

ولتحقيق هذه الغاية يجب على الذاكر أن يفتتح ورده أولا بالاستغفار و لو مائة مرة ليغسل باطنه من أدران المعاصي، ويتهيأ للمرحلة الثانية من مراحل الممارسة الذوقية وهي التحلية36. لأنّ شأنها أن تأتي بعد التخلية .

**ب / الدخول في التحلية** .ويقصد بالتحلية ، تحلية القلب واللسان بالأنوار الإلهية الزاكية من شدة ذكر الله ومعرفته ، وحتى يتحقّق ذلك يجب على الذاكر أن يتبع ذكره السابق ، الصّلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ليستنير بها الباطن ويتهيأ لما يرد عليه من سرّ التهليل، ولا ينسى الذاكر ، و هو في هذه الحالة الإيمانية أن يقصد بنيته – من وراء هذا الذكر– امتثال أمر الله تعالى ، و طلب رضاه ، والذي يساعد الذاكر ويعينه على إحضار نيته لله ، هو قلبه . و قصد القربة في هذه الأذكار، أن يذكر على قلبه أمر مولانا جل وعلا ، ليستشعر هيبة الأمر بمعرفة من صدر منه37.

**ج / الجمع بين التخلية و التحلية** . و هي تقوم على جملة من الخطوات المتدرج وخلاصتها كالآتي : أن يتعوذ الذّاكر من الشيطان الرجيم و يتلو بعض الآيات القرآنية ، ويقف عند قوله تعالى :{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}38 ثم يستجيب لأمر الله تعالى بالتهليل واستحضار النّية ثم الصّلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

**الفوائد المترتبة على الممارسة الذوقية :**

إنّ المواظبة على الذكر ، و الالتزام بالشروط الأساسية التي أشار إليها المتصوفة، و احترامها في الممارسة الذوقية، واحترام خطواتها و مراحلها ، تكسب الذاكر جملة من الفوائد منها ما يرجع إلى محاسن الأخلاق الدينية ، ومنها ما يرجع إلى الكرامات و خوارق العادة .

**أولا : ما يرجع إلى المحاسن الدينية** . فممّا يتصف به الملازم للذكر:

أولا – اتصافه بالزهد : و هو خلو الباطن من الميل إلى فان ، و فراغ القلب من الثقة بزائل ، وإن كانت اليد معمورة

بمتاع حلال ، ثانيا – التوكل : وهو ثقة القلب بالوكيل الحق بحيث يسكن عن الاضطراب عند تغير الأسباب ثقة بمسبب الأسباب ، و لا يقدح في توكله تلبس ظاهره إذا كان قلبه فارغا منها ، يستوي عنده وجودها وعدمها ، فالتوكل لا يتعارض مع السعي و الإكساب ، فالكسب و التوكل لا يستغني أحدهما عن الآخر ، ففي البداية يكون الكسب و السعي ، ثم يكون الجمع بينهما بالسعي ، و الكسب بالحركة الظاهرة ، مع التوكل بالقلب ، وذلك لتحقيق الإيمان ، فالجوارح متحركة في الأسباب و الباطن ساكن لوعد الله . ثالثا – الحياء : وهو تعظيم الله عزّ و جل بدوام ذكره ، و التزام امتثال نهيه وأمره و الإمساك عن الشكوى به إلى العجزة و الفقراء غيره .رابعا – الغنى : وهو غنى القلب بسلامته من فتن الأسباب ، فلا يعترض على الأحكام بلوم و لا بلعلّ ، لعلمه بمن صدرت منه ، جلّ المنفرد بالخلق و التدبير الملك الوهاب .خامسا – الفقر: وهو نفض يد القلب من الدينار حرصا و إيثارا ، لقطعه بأنّ حاجته ليست عند شيء منها ، وسكوت اللسان عنها بالكلية مدحا و ذما .سادسا– الإيثار . سابعا – الفتوة : وهي التجافي عن مطالبة الخلق بالإحسان إليه و لو أحسن إليهم ، لعلمه بأنّ إحسانه وإساءتهم إليه، كل ذلك مخلوق لـه سبحانه

وتعالى:{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ }39، ثامنا- الشكر: وهو إفراد القلب بالثناء على الله ، و رؤية النعم في طي النقم .

**ثانيا : ما يرجع إلى الكرامات وخوارق العادة** .من الفوائد الأخرى، التي تحصل للذاكر أن يجود الله سبحانه وتعالى ويفتح على عبده الكثير من الكرامات والمواهب ، فمنها وضع البركة في الطعام ونحوه، حتى يكثر القليل ويكفي اليسير وهذا مشاهد لأولياء الله كثيرا .

هذا وقد ذهب المحققون ، في جواز وقوع الخوارق، كلها على يد الولي ، باختياره و بغير اختياره . والولي إنّما يظهر على يده ما يظهر من الكرامات ، بسبب استقامته وامتثاله لأمر الله ونهيه ، وتوحيده وذكره ، وببركة متابعته للرسول صلى الله عليه وسلم والإقتداء به .

وعلى الجملة فإن الكرمات عند المتصوفة لا ينالها من طلبها ، ولا من حدث نفسه بها ، واستعمل نفسه وهواه في طلبها ، إنّما ينالها عبد لا يرى نفسه و هواه ، ولا عمله ، بل هو مشغول بطاعة ومحبة الله تعالى ، ناظر لفضل الله ، آيس من نفسه وعمله .

**المبحث الثالث: خصائص الممارسة الذوقية.** تتميز التجربة و الممارسة الذوقية الصوفية بجملة من الخصائص وتقوم على عدة مقومات من أهمها :

**أولا : أساسها التوحيد** : التوحيد هو أول خصائص الممارسة الذوقية ، و هو أيضا أول مقوماتها ، فلا وجود و لا معنى لهذه الممارسة بغير التوحيد ، ولا أثر لها بغيره، فإن الذاكر يكون بالضرورة وقبل كل شيء على دراية بالتوحيد **40** .

والتوحيد كما هو الأساس في الفكر العقدي، هو أيضا أول مقوم من مقومات الفكر الصوفي، كما أنّ حقيقة التوحيد هي الأساس في حركتهم الإصلاحية، وتجرد المتصوفة الربانيين لهذا الأمر يعود لجملة من الأسباب ترجع كلها إلى قيمة التوحيد في العقيدة الإسلامية ، فهي أساس الدين الإسلامي، والركن الركين الذي تتمحور حوله سائر حقائقه ، ومنه تستمد قوامها ، و إليها ترجع كلها بوجه أو بآخر ، ولقد بيّن القرآن الكريم بأنّ الأنبياء جميعا بعثوا إلى أقوامهم برسالة التوحيد عنوانها « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره « مثل قوله تعالى :{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } ، و قوله

تعالى :{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ }، وقوله تعالى:{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ } ، و قوله تعالى :{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }41 ، و تحريرهم من رجس وعبادة الطاغوت أيّا كان اسمه وعنوانه، و أيّا كان شكله و صورته :{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}42. وكانت دعوة النبي صلى الله عليه و سلم إلى ملوك النصارى و أمراء أهل الكتاب لهذه الآية الكريمة» { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ}43.

**ثانيا : الانضباط بأحكام الشرّع الإلهي** . إنّ جوهر الممارسة الذّوقية الحقة هو حسن الصلة بالله تعالى ، وبذكره وشكره ، و استغفاره و الصّلاة على نبيه ، وحسن عبادة الله جل شأنه ، و حتى تكون هذه الصلة صحيحة يجب أن تكون

هذه الممارسة و العبادة لله وحده ، فلا يشرك به أحد ، ولا يشرك به شيء، و لهذا حرص الإمام أن يكون الذاكر دائما مستحضرا وجود الإخلاص لله ، لأنّه قد تدخل على السالك آفات كثيرة تشوب إخلاصه ، و ما هذه الآفات إلا حجب تعرقل سيره إلى الله تعالى ، لذا كان من الضروري الإشارة إليها ، و تحذير السّالكين الذاكرين من مخاطرها ، ثم بيان طريق الخلاص منها حتى تكون جميع أعمال السالك خالصة لوجه الله تعالى لقوله سبحانه « {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء } 44 . و قوله تعالى : { فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً }45.

**ثالثا : أنّها قائمة على الإتباع لا الابتداع** .لأنّها عبادة، والأصل – كما نجده عند المتصوفة الخلص – أنّ المؤمن لا يعبد الله إلاّ بما شرعه سبحانه في كتابه ، و على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ذلك لأنّ الأصل في الإسلام في شأن العبادات التوقيف والمنع ،حتى يأتي نص من الشارع ينشئها، على خلاف الأصل في العادات والمعاملات وشؤون الحياة ، فالأصل فيها الإذن والإباحة، ما لم يأت نهي محرم من الشارع46

ومن هنا فإنّ الذكر الذي يتعبد به المؤمن ربّه ذكر مشروع ، سواء ما كان منه متعلقا بالآيات القرآنية أو الاستغفار أو الصّلاة على نبيه صلى الله عليه و سلم ، و سواء ما تعلق بالشروط اللازمة قبل ممارسة الذكر .فالذين يحكمون أذواقهم ومواجيدهم في إنشاء صور وابتداع أشكال وأساليب للعبادة، استحسنتها عقولهم ، وزيّنتها لهم أهواؤهم ، مخطئون خطئا فاحشا ، وإن كانوا يقصدون التقرب إلى الله تعالى : فإنّ شرعية العبادة لا تستمد من تحسين العقل ، ولا من تزيين الهوى ، بل من الوحي وحده47.

فالمبدأ الذي دعا إليه الإسلام أن يتبع المسلم في عباداته الحدود المرسومة له ، فليس يكفي أن يقصد بالعبادة وجه الله وحده ، ولا يتوجه به إلى أحد أو شيء غيره ، بل لا بد أن تكون عبادة الله بالصورة التي شرعها الله ، وبالكيفية التي ارتضاها ، و لا تكون عبادته بما يخترع النّاس من أهواء وظنون .فمن أسلم وجهه لله ولم يشرك بعبادة ربه أحدا فقد أخلص الدين لله وحده ، ولكن ذلك لا يكفي ما لم يفعل ذلك وهو محسن و ما لم يعمل عملا صالحا ، والإحسان و العمل الصالح أن يتقرب لله بما شرعه الله لا بما وضعه الناس .

**رابعا : البساطة و السهولة** .ومن جملة ما تمتاز به أيضا الممارسة الذّوقية الصوفية أنّها ممارسة سهلة ميسّرة، لا تكلف الإنسان شططا وترهقه عسرا، ولا تحمله من الآصار والأغلال ما يقصم ظهره ، لأنّ هذا من الدين ، فالمؤمن في الإسلام لا يكلّف إلا بما يطيق ، وما هو في وسعه ، وليس مطالب إلا بما يستطيعه، ويقدر عليه دون مشقة شديدة و قد جاء في القرآن الكريم قوله سبحانه و تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ }48.

و لعلّ الغاية الأخرى التي يهدف إليها المتصوفة من وراء هذا التيسير، أن تتسع هذه الممارسة لكل مراتب الناس ودرجاتهم ، الدنيا و الوسطى و العليل ،كما تتسع للعامة والخاصة .وهذا المبدأ رعاه الإسلام في أمر العبادة و الذكر ، هو اليسر ورفع الحرج ، وإزالة العنت، ووضع الآصار والأغلال عن أعناق المكلفين ، الآصار التي عرفت في بعض الديانات السالفة كاليهودية وغيرها ، وقد علم الله المؤمنين أن يدعوه في جميع الأوقات و الحالات .

**خامسا: إنهّا اعتدال بين العقل و القلب والعمل الاجتماعي :** ويمكن التماس ذلك ، من خلال حب المتصوفة للناس جميعا ، وتعاطفهم مع أهل القلوب، واستمرار تواصلهم مع النّاس.

## الهوامش:

[1]- أحمد آمين - ظهر الإسلام ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، دت : ص **152**

[2]- الجرجاني – التعريفات ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط**3** ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، **1996**: ص **144**

[3]- الطور الآية **19**

[4]- القمر الآية **48**

[5]- الروم الآية **36**

[6]- هود الآية **10**

[7]- عبد المنعم الحنفي – الموسوعة الصوفية ، ط**5** ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مصر ، **2006**م: **979- 980**

[8]- المرجع نفسه :ص **980**

[9]- الجرجاني – التعريفات: ص **58**

[10]- السنوسي - مكمل إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم ، مكمل إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم ، دط ، مكتبة طبرية ، الرياض ، السعودية، دت: ج **01** ص**129**

[11]- حديث «ذاق طعم الإيمان « رواه مسلم في صحيحه .

[12]- السنوسي - مكمل إكمال إكمال المعلم على شرح صحيح مسلم : ج **01**ص **129**

[13]- السنوسي- شرح حديث التسبيح : لوحة **129**ص **258**

[14]- السنوسي- شرح حديث التسبيح: لوحة **129** ص **258**

[15]- السنوسي- شرح أبيات في التصوف لألبيري : لوحة **150**ص **299**

[16]- المصدر السابق : لوحة**150** ص **300**

[17]- رواه أبو داود ( 2/ 64 ) كتاب : الصلاة. باب : القنوت في الوتر . و الترمذي في سننه :ص: 560 . كتاب : الدعوات. باب : الدعاء في الوتر. ( في الصلاة) .

[18]- السنوسي - شرح حديث التسبيح :لوحة 129ص 258

[19]- السنوسي - شرح أبيات التطهر بماء الغيب : لوحة 148ص295

[20]- ابن عطاء الله السكندري – الحكم العطائية الحكمة الثالثة عشر

[21]- السنوسي- شرح أبيات في التصوف لألبيري :لوحة 150 ص 299

[22]- السنوسي - شرح أبيات التطهر بماء الغيب : لوحة 148ص295

[23]- أحمد بن عجيبة الحسني – إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، دط ، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع ، دت : ج1 ص30

[24]- جمال الدين بوقلي حسن- ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وفي الواقع : ص 562

[25]- المزمل الآية 06

[26]- عبد الله دراز- دستور الأخلاق في القرآن الكريم ، ط10، تعريب عبد الصور شاهين ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان ، 1418هـ/ 1998م :ص 651

[27]- آل عمران الآية 190- 191

[28]- النووي - حلية الأبرار و شعار الأخيار – تحقيق علاء الشريجي و قاسم النوري ، ط1 ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان ، 1412هـ / 1992م : ص32

[29]- قال القشيري : « الخلوة صفة أهل الصفوة ، و العزلة من أمارات الوصلة و لابد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ثم في نهايته من الخلوة لتحقيقه بأنسه و من حق البعد إذا أثر العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره و لا يقصد سلامته من شرّ الخلق فإن الأول من القسمين نتيجة استصغار نفسه و الثاني: شهود مزيته على الخلق و من استصغر نفسه فهو متواضع

و من رأى لنفسه مزية على أحد فهو متكبر « . انظر ، القشري – الرسالة القشيرية : ص 176

[30]- أخرج مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان عن جابر ابن عبد الله -رضي الله عنه قال – قال رسول الله صلى الله عليه و سلم «جاورت بحراء شهرا، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي».

[31]- أحمد زروق البرنسي – قواعد التصوف : ص 77

[32]- السنوسي – شرح أم البراهين : ص87

[33]- الأحوال تعرض للذاكر و يستحب له قطع الذكر بسببها ، ثم يعود إليه بعد زوالها ، منها : إذا سلم عليه رد السلام ، ثم عاد إلى الذكر و كذا إذا عطس عنده عاطس شمته ، ثم عاد إلى الذكر ، و كذا إذا سمع الخطيب ، و كذا إذا سمع المؤذن أجابه في كلمات الآذان و الإقامة ثم عاد إلى الذكر ، و كذا إذا رأى منكر أزاله ، أو معروفا أرشد إليه ، أو مسترشدا أجابه ، ثم عاد إلى الذكر و كذا إذا غلبه النعاس أو نحوه ، و ما أشبه هذا كله». انظر ، النووي – حلية الأبرار و شعار الأخيار : ص 71- 72

[34]- السنوسي – مختصر بغية السالك في أشرف المسالك ، مخ :لوحة 01ص01

[35]- جمال الدين بوقلي حسن – ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية والواقع : ص 563

[36]- السنوسي- شرح أم البراهين : ص 87

[37]- السنوسي – شرح حديث التسبيح : ص 258 ، و شرح أم البراهين : ص 87

[38]- محمد الآية 19

[39]- الصافات الآية 96

[40]- جمال الدين بوقلي حسن – ابن يوسف السنوسي بين الذاكرة الشعبية والواقع : ص 546

[41]- الأعراف الآيات : **59، 65 ، 73، 85**

[42]- النحل الآية **36**

[43]- آل عمران الآية **64**

[44]- البينة الآية **05**

[45]- الكهف الآية **110**

[46]- يوسف القرضاوي – الحياة الربانية والعلم : ص **36**

[47]- يوسف القرضاوي – الحياة الربانية والعلم : ص **36**

**48**- سورة الحج الآية **78**